الإسلام والمسلمون في جنوب إفريقيا

أ. عادل جعفر مولتشوا
المديـر العـام لجمعيـة أواسـا – بريتوريـا – جمهورية جنوب إفريقيا

في عـام ١٩١٠م؛ أعلنـت حكومـة الاحتـلال البريطانيـة إنشـاء دولـةٍ موحّـدة فـي جنـوب إفريقيـا، سُـمّيت «اتحـاد جنـوب إفريقيا» حينئذ، بعـد أن كانت دويلات مسـتقلة منذ بدء الاحتلال الأوروبي، باسـتثناء مملكتَـي سـوازِيلَاند ولِيسُـوتو اللتَيْـن ظلتـا مسـتقلتَيْن، تحيط بهما دولة جنوب إفريقيا من كلّ الجهات.

فكان هـذ إعـلان ولادة دولة جديـدة بحدودها المعروفـة اليـوم، يُقـدّر عـدد سـكانها بنحـو

خمسة وخمسين مليون نسمة – حسب آخر الإحصاءات –، نسبةُ المسلمين من ذلك من ٢ – ٣٪ تقريباً. ويشمل التركيب السكاني: السكان الأصليّين من الأفارقة. والآسيويّين، وأغلبهم الجالية الهندية، فلا غَرْو في أنّ أكبر جالية هندية في إفريقيا توجد في جنوب إفريقيا. ثمّ الأوروبيّين، وهُم ذرّيات الجيل المحتل، وأكثرهم عدداً الهولنديون – وقد أطلقوا على أنفسهم اسم: «أفريكانيّون» –، ويليهم الإنجليز، وأكبر تجمّع للأوروبيّين في القارة الإفريقية يوجد في جنوب إفريقيا. وثَمَّة مجموعةٌ أخرى عُرفوا بأنهم: «مُلوّنون»؛ لكونهم وُلدوا من اختلاط عدة عرقيّات.

أول دخول للإسلام في جنوب إفريقيا:

مع أنّ بعض جيران جنوب إفريقيا قد عرفوا العروبة قديماً، بل عُرفت العروبة في شرق إفريقيا بقرونٍ قبل الدعوة الإسلامية، من ساحل الصومال في القرن الإفريقي إلى ساحل موزمبيق، والتي عُرفت بعد دخول الإسلام ببلاد سفالا (سفالَى)، فالملاحظ أنّ هذا الاتصال قد توقّف، ولم يتوغل إلى ما وراء سفالَى من الجنوب، فاستمر الحال على هذا حتى ما بعد وصول الإسلام إلى المنطقة، ما أدّى إلى تأخّر دخول الإسلام لجنوب إفريقيا.

وأول وصولٍ مسجّلٍ للمسلمين، في تاريخ هذه البلاد، كان بعد استقرار الهولنديّين في منطقة كيب تاون غرب البلاد في ق١٧م، بإشراف الشركة الشرقية الهولندية الهندية وقيادتها، والتي اتخذت في كيب تاون محطة لسُفُنها التي كانت تتاجر بين هولندا والهند، ثمّ لمّا احتلت هولندا إندونيسيا واجهت مقاومةً من المسلمين هناك، وقد سجنوا أربعة مقاومين بتهمة إثارة الشعب ضدّ الحكومة الهولندية، فحكمت عليهم المحكمة العليا

يتمتع مسلمو جنوب إفريقيا بوضعٍ نادرٍ للأقليات المسلمة في العالم، حيث تجمّع في حقّهم عناصر البيئة الخصبة لممارسة الإسلام ونشره

في باتافيه (جزيرة جاوا في إندونيسيا حاليّاً) بالتغريب والجلاء؛ فنُفي ثلاثةٌ منهم إلى موريشيوس، وواحدٌ إلى جنوب إفريقيا في كيب تاون أسيراً سياسيّاً، فلعلّ هذا هو أول مُسلِم له دخولٌ مسجّلٌ في تاريخ جنوب إفريقيا[1].

ثم تتابع دخول المسلمين إلى جنوب إفريقيا رويداً رويداً، وجلّ مَن جاء من هذا الجيل كانوا أسرَى سياسيّين معتقَلين، وكانوا ممنوعين من إظهار دينهم أو دَعْوَة الآخرين إليه، ومن ثَمّ لم يكن للإسلام ظهورٌ أو تأثيرٌ يُذكر حتى أواخر ق١٧م.

وفي سنة ١٦٩٤م؛ بعد وصول الشيخ عابدين يوسف، ومَن معه من أفراد عائلته وأصحابه، وكان هذا الشيخ من أسرةٍ ذات حَسَب وشَرَف في جاوا بإندونيسيا، ولهذا لم يُسجن، وإنما عُيِّن له مكانٌ يستقرّ فيه حرّاً هو ومن معه في زَنْدَفليت، إذ كان يكفي في نظر الهولنديّين نفيه من وطنه الذي كان يهدّد حكمهم فيه، ومع ذلك ظلّ تحت مراقبتهم. ومن هنا بدأت النشأة الأولى لمجتمعٍ إسلاميٍّ في جنوب إفريقيا.

ويمكن إطلاق «المَوْج الأول»: على مَن دخل في جنوب إفريقيا من المسلمين، في الفترة التي كانت هولندا تحكم فيها كيب تاون، إلى أن غلبها الاحتلال البريطاني.

ولمّا احتل الإنجليز «كيب تاون» في غرب البلاد، ومنطقة «ناتال» في شرق البلاد في ق١٩م، وكانت في

(١) تاريخ الإسلام في جنوب إفريقيا (The History of Islam in South Africa – A Chronology)، ص٥.

الوقت نفسه تحتل شبه القارة الهندية، جلبوا عمّالاً أحراراً ذوي خبرة في زراعة قصب السكر إلى ناتال، وكان في أولئك العمّال مسلمون، وفي هذه الفترة تتابعت الهجرات من الهند إلى منطقة ناتال بجنوب إفريقيا، حتى أصبح هنالك مجموعةٌ من المسلمين، وأكثرهم كانوا قد أخذوا الخروج النهائي من الهند على أنهم لن يُسمح لهم بالرجوع، فاستوطنوا في مهجرهم الجديد.

وتُعدّ مجموعة ناتال «المَوْج الثاني»: لدخول المسلمين في جنوب إفريقيا؛ إذ كانت الأولى من ناحية الغرب، وهذه من ناحية الشرق، ثمّ تتابعت هجرات المسلمين إلى جنوب إفريقيا من بلادٍ شتّى عبر القرون، من القارة الإفريقية وغيرها، فاستقرّ أمرُ المسلمين في البلاد، وصار لهم وجودٌ ملاحظ.

وهناك «المَوْج الثالث» من المسلمين: وَهُم المسلمون الأفارقة الذين جاؤوا من زنجبار عبيداً عن طريق الإنجليز، فاشتهروا بأنهم «زنجباريون»، واستقروا في دربان مع الهنود. وفي أيام حكومة التمييز العنصري لم يُضمّوا إلى السكان الأفارقة، وإنما وُضِعوا في صنفٍ جديدٍ، وهو «الآسيويون الآخرون»، فصاروا صنفاً بين السُّود والهنود، ولكن عند تدقيق النظر؛ يتضح أنّ هناك خطأً تاريخيّاً فاحشاً، ذلك أنهم ليسوا من قبائل زنجبار، وإنما ينتمون إلى إحدى قبائل «سفالَى» (موزمبيق)، وهي قبيلة «مَكُوَا»، وهي قبيلة مسلمة عريقة، تأثّرت لغتها باللغة العربية إلى حدٍّ كبير.

توزّع المسلمين ووضعهم الاقتصادي:

وعلى مرّ الزمان؛ انتشر المسلمون الوافدون، وتوغّلوا داخل البلاد بعيداً عن المناطق الساحلية التي كانت مرساهم عند الوصول الأول، وبقي هناك مَن بقي، وكان من دواعي هذا التنقل الداخليّ طلب الرزق، بالبحث عن الوظيفة، وعن أراضٍ للسكن، ما أدّى إلى انتشار مجتمعات المسلمين في مدنٍ كثيرة.

وفي الحاضر؛ انتشر المسلمون في كلّ المدن الكبيرة والمتوسطة، وبعض المدن الصغيرة، وعلى الأقلّ يوجد لهم مَسْجِدٌ واحدٌ فيها، وما زالت مدينة كيب تاون تضمّ أكبرَ عددٍ للمسلمين منذ البداية، تليها أختها في الشرق: مدينة دربان في كوازواز ناتال.

كان أغلب المسلمين، الذين وصلوا إلى جنوب إفريقيا من جهة كيب تاون، من شرق جنوب آسيا، ووصلوا إمّا أسارى وإمّا عبيداً، وصاروا أهل الحرف والمهن التي توارثوها منذ أيام رقّهم؛ وما زالوا يتوارثونها جيلاً بعد جيل، ومع ما يملكون من هذه المهارات فإنّهم لم يميلوا إلى إنشاء الشركات أو تجارة الخدمات إلا القليل جدّاً، واقتصروا على كونهم قوى عاملة، يقدّمون خبراتهم بالعمل في الشركات الخاصّة والحكومية.

أما المسلمون الذين وصلوا من جهة دربان في ناتال، وهم «الموج الثاني»، وكان أكثرهم أحراراً، إمّا عمّالاً وإمّا تجّاراً، فقد برعوا في التجارة، وأكثر تجاراتهم «أُسَرية» أي «وراثية» جيلاً بعد جيل، وأصبحوا أصحاب شركات كبيرة؛ فبهذا صارت «الهيمنة الدينية» لهم في البلاد؛ بما يملكون من الإمكانيّات المادية، فَهُم الذين ينفقون كثيراً على المشروعات الدينية والمؤسّسات الإسلامية، لذلك قلّما تتّجه المؤسّسات الإسلامية بجنوب إفريقيا لطلب المعونات والتبرعات من الخارج.

واعترافاً بقوة المسلمين الاقتصادية؛ بدأت كثيرٌ من البنوك تقدّم الخدمات المالية الإسلامية؛ مثل المرابحة أو المضاربة، في شراء العقارات أو السيارات أو في القروض، وتوجد كذلك بنوك يملكها المسلمون، مثل: بنك البركة، وبنك HBZ، وحبيب بنك.

المسلمون مع المجتمع العام:

ونتيجةً لنظام حكومة التمييز العنصري في إسكان النّاس حسب المجموعات العِرْقية، تشتّتت الأسر، وضاعت الأموال، وكسدت التجارة؛ وذلك بدعوى أنّ اللّه خَلَقَ النّاس مختلفين في اللون واللغة والتقاليد، فتحتّم التمييز بينهم، ومع أنّ حكومة التمييز العنصري قد سقطت وزالت، وجاءت حكومة الاتحاد الوطني مكانها، في العهد الجديد منذ عام ١٩٩٤م، فإنّ بقايا التمييز العنصري وتراثه قد استعصت إزالتها على الرّغم من مُضي أكثر من عشرين سنة.

ولم يكن للمسلمين عَاصِمٌ من هذا الواقع الاجتماعي، فتمزّقت مجتمعاتهم كذلك في كلّ نواحي البلاد، ومن ثمّ أصبح هناك المسلمون الهنود في مساكن الهنود، والمسلمون الملوّنون في مساكن الملوّنين، والمسلمون

السُّود في مساكن الأفارقة، وهي مساكن كبيرة، إلا أنّ انتشار الإسلام فيها قليلٌ جدّاً، ولكن على الرغم من ذلك استطاع المسلمون تحقيق التعايش السّلمي مع بني عِرْقيّاتهم في تلك المعازل العِرْقية، واستمروا عليه حتى بعد العهد الجديد إلى الوقت الحاضر، ولهذا يتمتعون بمكانةٍ واحترام في كثيرٍ من هذه المجتمعات.

ويهدّد هذا التعايش السّلمي، بين أبناء العرقيات، ما عُرف حديثاً بظاهرة «الإسلامفوبيا» (العداء ضدّ الإسلام)، التي ينشرها الغرب، فإنها تشعل نيران العداوة والتهمة ضدّ المسلمين.

الوضع السياسي:

منذ دخول المسلمين البلاد وَهُم في معايشةٍ مسالمةٍ للآخرين، لذلك لم يتعرضوا لأذًى يُذكر، حتى الحكومة لم تتخذ موقفاً معادياً للإسلام، لا في السابق ولا في الحاضر، علماً أنّ الحكومات التي عاصرت دخول المسلمين لجنوب إفريقيا كانت نصرانية، وكانت النصرانية هي الدين الرّسمي للدولة.

ولقد كان للمسلمين دَوْرٌ بارزٌ في مناهضة جريمة الفصل العنصري، على مستوى الكيانات أو الأفراد، فمجلس القضاء الإسلامي، الذي جاءت نشأته مبكرة عام ١٩٤٥م في كيب تاون، ويمثّل المسلمين فيها وفيما حولها من المدن، كان له نضاله المعروف في مرحلة التحرّر من نظام الفصل العنصري، ومعارضة حكومة الفصل العنصري التي حكمت جنوب إفريقيا سابقاً، الأمر الذي انعكس على الثقل النسبيّ للمكوّن الإسلامي، ولا سيما الهنود، في أول تشكيلٍ حكوميٍّ في أعقاب التحوّل الديمقراطي في جنوب إفريقيا عام ١٩٩٤م، حيث ضمّت الوزارة أكثر من أربعة وزراء من المسلمين، وكان هناك نحو عشرة سَفَراء منهم في الخارج، كما تمّ إقرار بعض تشريعات الأحوال الشخصية الخاصّة بالمسلمين والمستمدة من الشريعة الإسلامية.

وعلى صعيد القضايا الإقليمية والدولية؛ يحظَى المسلمون في جنوب إفريقيا بحسٍّ سياسيٍّ كبير، ومشاركة فاعلة ومدروسة، ومن ذلك دَوْرهم المؤثّر في «قمّة الأرض»، بالتصدّي لمشاركة إسرائيل فيها، الأمر الذي دفع الولايات المتحدة للخروج تضامناً مع إسرائيل، فقد استطاع المسلمون، بالتعاون مع الجمعيات المناوئة للتمييز العنصري، تنظيم التظاهرات المناهضة لإسرائيل وأمريكا، والمؤيدة للقضية الفلسطينية في أثناء القمّة.

ومثل هذا الموقف اتخذته الجالية الإسلامية ضدّ قانون مكافحة الإرهاب، حيث أكدت العديد من المنظمات الإسلامية رفضها للقانون، ورأت مثل هذه التشريعات ليست فقط «غير ضرورية»؛ بل إنها تهدّد الحريات الأساسية التي ناضل من أجلها مناهضو نظام الفصل العنصري طويلاً، وأنها خضوعٌ كاملٌ للضغوط الأمريكية[١].

ومن العلماء الذين وقفوا في وجه الفصل العنصري الإمام عبد الله هارون[٢]، حيث استخدم «رابطة الشباب المسلم» لدعوة الأفراد والشخصيات العامّة المناهضة لـ«الأبارتهيد»، وهو ما ساهم في أن يُصدر في ١٩٦١م كُتيّباً بعنوان (الدعوة إلى الإسلام)، يتضمّن معارضة العنف في جنوب إفريقيا.

---

(١) بين الطموحات والتحديات..: الإسلام في جنوب إفريقيا، فاطمة محمد البغدادي، الرابط:
http://www.almarefh.net/show_content_sub.php?CUV=370&Model=M&SubModel=138&ID=643&ShowAll=On

(٢) الإمام عبدالله هارون: وُلد في ٨ فبراير ١٩٢٤م، بمنطقة نيولاندز – كليرومنت، في الأحياء الجنوبية لمدينة «كيب تاون»، وتلقّى تعليمه الابتدائي في مدرسة الفلاح، وسافر إلى مكة المكرمة لتلقّي العلوم الإسلامية، حيث درس على يد الشيخ عبدالرحمن العلوي المالكي (ت١٩٨٦م)، وبعد عودته استكمل دراساته على يد الشيخ عبدالله طه جمال الدين، والشيخ إسماعيل غانيف. يُعدّ الإمام عبدالله هارون أحد رموز النضال الإسلامي ضدّ نظام التفرقة العنصرية. ويرى كثيرٌ من الكتّاب أنّ مشاركة الجماعة المسلمة في جنوب إفريقيا في حركة النضال ضدّ نظام الفصل العنصري قد تجاوزت حجمها؛ من حيث كونها أقلّية. انظر:
Ursula Gunther, The memory of Imam Haron in Consolidating Muslim Resistance in Apartheid Struggle in Mitchell, Gordon. ed. Religion and the Political Imagination in a Changing South Africa. Münster; -München (u.a.): Waxmann, 2002.pp.89 .90

ولم يقتصر، في نشر أفكاره الإصلاحية، على جريدة «أخبار المسلمين» الشهرية، فقد استخدم خطب الجمعة والمحاضرات العامّة، خلال الخمسينيّات والستينيّات، واستطاع أن يوجّه عبرها النقدَ اللاذعَ لقوانين الفصل العنصري وسياساته المطبقة في بلاده.

وحينما نظّم المؤتمر الإفريقي الجامع مسيرته الحاشدة، عام ١٩٦٠م في كيب تاون، أكّد الإمام في خطبة الجمعة مفهوم «الأخوة الإنسانية» في الإسلام، ودَوْر المسلمين الوطني، حيث دَعَا أتباعه ومريديه إلى ضرورة مساندة إخوانهم الأفارقة الذين كانوا أكثر الفئات معاناة في ظلّ نظام الفصل العنصري.

وفي مايو١٩٦١م، في أثناء اجتماع عامٍّ في مدينة الكاب، انتقد الإمامُ قوانين مناطق الفصل العنصري، ووصفها بأنها غير إنسانية وغير إسلامية: «هذه القوانين تبتعد تماماً عن مبادئ الإسلام الأساسية، وأنها صُمّمت لإعاقة مسيرتنا السياسية والاقتصادية والتعليمية، إننا لا يمكن أن نقبل هذا النمط من أنماط العبودية»[١].

كذلك الدكتور فريد إسحاق[٢] و «حركة الإسلام التقدّمي»، فمن خلال عمله النضالي في جنوب إفريقيا ضدّ سياسة الفصل العنصري طالب بالاجتهاد؛ للتركيز في مسؤولية المسلمين في العمل ضدّ كلّ أنواع الظلم الاجتماعي، ويعكس إسحاق خبرة النضال الوطني متعدّد الثقافات والأديان؛ في مواجهة نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا.

وفي هذا المقام؛ جديرٌ بالذكر أنّ هناك من المسلمين مَن كان لهم مساهمةٌ كبيرةٌ في النضال السياسي ضدّ التمييز العنصري، وقد سُجن بعضهم مع مانديلا في جزيرة روبان، منهم: أحمد كثرادا، وعزيز بهاد، وأحمد تمول، ويوسف دادو.. وغيرهم كثير، وقد سمّيت بعض الشوارع العامّة بأسمائهم؛ إكراماً واعترافاً بدَوْرهم السياسي في تحرير البلاد من التمييز العنصري.

وقد قاومت حكومة العهد الجديد – بعد سقوط حكومة التمييز العنصري- المحاولات العالمية لإقناعها بالتضييق على الإسلام والمسلمين، فبذلت ما في وُسعها في عدم التمييز بين مواطنيها بحسب الانتماء الديني. وقد حاولت الأيدي الخبيثة- مؤخّراً- إثارة القلق في الدولة بالوشايات، وتشويه صورة الإسلام وسُمعة المسلمين، مستغلين ظهور الغلوّ والعنف في بعض أوساط المسلمين في العالم الإسلامي، وعلى الرغم من ذلك تمسّكت الحكومة بموقفها، وأصرّت على وزن الأمور بموازينها، ومعالجة كلّ مسألة بحقائقها، بناءً على دستور الدولة، الذي يضمن للجميع الحرية الدينية، والتي تسمح لأيّ فردٍ ومواطنٍ بإظهار ممارسة دينه، ونشره والدعوة إليه.

وقد استفاد بعضُ المسلمين من هذه الأجواء السياسية؛ فمارسوا النشاط السياسي، من خلال الانضمام إلى الأحزاب السياسية، أو إنشاء أحزاب سياسية مستقلة. وفي انتخابات الرئاسة الأخيرة لوحظ أنه كان من ضمن الأحزاب السياسية المشاركة حزب باسم «الجماعة»، وكان من شعاراته الانتخابية: «السعي إلى إحياء المبادئ الإسلامية»، وطبعاً لم يَعدّ حزب «الجماعة»، ولن يستطيع أيّ حزبٍ دينيٍّ الإعلان أو الوعد بتطبيق شريعة دينهم في حكم الدولة؛ لأنّ ذلك في الحقيقة يُعدّ انقلاباً سياسيّاً على الدولة التي يحكمها دستورٌ وضعي لا ديني.

وحاليّاً؛ ليس هناك حزبٌ سياسيٌّ للمسلمين في البرلمان الوطني، ولا في المجالس التشريعية الإقليمية في الولايات، ولكن انضم بعض المسلمين إلى الأحزاب السياسية الأخرى، وانتُخب بعضهم في مناصب بالبرلمان الوطني والإقليمي، وتقلّد بعض المسلمين عدداً من الوزارات في الحكومة الوطنية، كما انتُخبوا أعضاء في البرلمان، غير بعض مَن يتقلّدون مناصب في الحكومات الإقليمية أو الإدارات البلدية.

(١) دراسة: الحركة الإسلامية في جنوب إفريقيا، عبدالقادر طيوب، مركز المسبار للبحوث والدراسات، http://www.almesbar.net
الحركة-الإسلامية-في-جنوب-إفريقيا

(٢) الدكتور فريد إسحاق: وُلد عام ١٩٥٩م، وترعرع في «كيب تاون»، وينتمي إلى جذور آسيوية، حيث تنتمي عائلته إلى أرخبيل المالاي، وقد صُنّف وفقاً لنظام الفصل العنصري باعتباره ملوّناً، ولعلّ تلك النشأة، في وسط نظام القهر العنصري، جعلته أكثر وعياً بسياقه المجتمعي والثقافي، وقد تخرّج في الجامعة الإسلامية العالمية في كراتشي، وقد أكمل إسحاق درجة الدكتوراه في تفسير القرآن بجامعة برمنغهام (بريطانيا).

الوضع الديني:

المسلمـون في جنـوب إفريقيا، مـن الناحية الدينية، ليسـوا منفصليـن عـن واقع العالـم الإسلامـي، فمسلمي جنـوب إفريقيـا لهم اتجاهـات شتى، أغلبهـا متوارث من بلادهم الأصلية، واستمروا متمسّكين بها إلى يومنا هذا.

ولعلّ من أبرزها وأكثرها شيوعاً ما يأتي:

أ- الصوفية:

جـاءت الصوفية مع الموجات الأولـى من المسلمين، وكانـوا مـن أتبـاع «الطريقـة القادريـة»[1] غالبـاً، وممّـا اشتهـروا به: عملية إدخـال السكاكين وقطـع أنفسهم بها مـن دون أن يُرى لذلك أثـرٌ أو جرح، ويسمّون هذه العملية: «راتـب» أو «رتيب»، وعملية أخـرى تسمّى: «الحداد»، حيث ينشدون أورادهـم ويتمايلون، هذا غيـر تعظيمهم للقبور، وبخاصّة قبور الشيوخ الأوائل الذين كانوا في «الموج الأول» لدخول المسلميـن جنوب إفريقيا، ويعتكفون عندها لأيام، وخاصّة في الأيام المصادفة لعيد الصليب النصراني.

بعض دعاة الشيعة في البلاد اتخذوا الصوفية ذريعةً لنشر الفكر الشّيعي بين العامّة، باستغلال التشابه العريق بين بعض عقائد الصوفية والشيعة

وهنـاك أتبـاع «الديوبنديـة الصوفيـة»، وقرينتهـا «البريلويـة»، دخلت كلتاهما جنـوب إفريقيا عن طريق مَن جاء من شبـه القارة الهندية في «المـوج الثاني»، وبينهما مشاحنةٌ وعداوةٌ وبغضاءُ تاريخية.

«الديوبنديـة»: منسوبـة إلـى مدرسـة دار العلـوم في ديوبنـد بالهند، ويُعدّ شيوخ هـذه المدرسة هُم المؤسّسون للفرقة الديوبندية، يقول أحد زعماء هذه الفرقة في جنوب إفريقيـا: «كثيرٌ مـن شبابنا يظنّون بـأنّ الديوبندية مجرد قريـة في الهنـد أو مدرسة دينيـة، لا، ليـس الأمر كذلك،

(١) نسبةً إلى عبد القادر الجيلاني، الذي نسبوه إلى مذهبهم البدعي ظلماً وزوراً؛ وإلا فقد كان- رحمه الله- إماماً من أئمة السنّة.

فإنّ الديوبندية منهجٌ نسلكه في فَهْم الدين كما تلقيناه من أكابرنا»[1].

أمـا «البَريلويّـة»: فَهُم أتباع «أحمد رضـا» من الهند، وَهُم أشدُّ غلوّاً في صوفيتهم من الديوبندية، فعبادة القبور والاستغاثـة بأصحابها والتضـرّع إليهم بالدعاء- الذي هو حقّ الله تعالـى- تُعدّ عندهم ركناً من أركان إيمانهم. وقد تجـدّد نشاطهم في الوقت الحاضـر، فَلَهُم قنواتٌ فضائية تبـثّ أفكارهـم، ويُنشـؤون المراكـز الدعويـة والمساجد ويسمّونها: «فيضان رضـا»، كما أنّ لهم برامج خيرية: من الإطعام والكسوة والمنح الدراسية.. وغيرها كثير.

ولأنّ الهيمنـة الدينية- سبقت الإشارة إليها- متركّزة فـي الديوبنديـة والبريلويـة؛ فقـد أسّسـا مجلساً باسم: «مجلـس اتحاد علماء جنوب إفريقيا»، وجعلوا كلّ جمعيات «علمائهـم» أعضاء بهذا المجلس الاتحادي، ولكن السيادة فيه للديوبندية.

«الجماعـة الغولانية»: وقد دخـل البلاد حديثاً جماعةٌ مـن تركيـا، يُطلـق عليهـم: «الجماعـة الغولانيـة»، نسبةً إلـى رئيسهـم «فتـح الله غـولان» المقيم فـي أمريكا وهي متأثـرة بالصوفية، فأول ما بـدأوا به عند وصولهم: إنشاء المعاهد المهنية والمدارس النظامية الخاصّة؛ فاغترّ بهم كثيـرٌ من السذّج مـن المسلمين، وقد بنـوا أكبر جامع في جنـوب القارة الإفريقية في جوهانسبـرغ، وسمّوه «مَسْجِد النظامية».

«الطريقـة التيجانيـة»: وفي الآونة الأخيـرة؛ انتشرت ظاهـرةٌ جديدةٌ وسـط المسلمين من الأهالـي الأصليّين، وهي الانضمـام لـ«الطريقـة التيجانيـة» الصوفية، بحجّة أنهـا صوفيـةٌ إفريقيةٌ فتناسـب الأفارقة، ولا شـك في أن هـذا ردّ فعلٍ لمقاومة الهيمنة الدينيـة لكلٍّ من الديوبندية والبريلويـة ذواتـي الأصـل الهنـدي، وأنّ الطابـع الهندي يستوحشه الطابع الإفريقي، ولا يخفى ما في هذا من بقايا الجاهليـة؛ من وزن الدين والحقّ بميزان العنصرية، وإنما يوزن الحقّ بكتاب الله وسنّة رَسُوله صلى الله عليه وسلم.

ب- الشيعة:

أصبح للشيعة نشاطٌ كبيرٌ في الآونة الأخيرة، بإشراف جمعية أهل البيت في جنوب إفريقيا (AFOSA)، كما يُلاحـظ تزايـد مراكزهـم (الحسينيّـات)، خصوصاً في المـدن الكبيرة، كما في «دربان» في حي أتاوا، وكيب تاون، وقـد استغلـوا وسائـل شتّى لنشـر مذهبهم، منهـا: المنح الدراسيـة للدراسـات العليا في الجامعـات الإيرانية، وقد عُقـدت اتفاقيات متنوعة بين جنوب إفريقيا وإيران، وهذا سيفتح الأبـواب على مصاريعها لبـثّ التشيّع تحت واجهة الدّعـم الثقافي، وتركّزت جهود الشيعـة في دعوة الأهالي الأصليّين، وبخاصّة شريحة الشباب المثقّفة.

ويلاحـظ أنّ بعض دعـاة الشيعة في البـلاد اتخذوا الصوفية ذريعةً لنشر الفكر الشّيعي بين العامّة من حيث لا يشعرون، باستغلال التشابه بين عقائد الصوفية والشيعة، من تعظيـم القبـور، والغلوّ فـي أئمتهم، ودعـاء الأموات، وغيرها من العقائد الهدّامة الضّالة.

المؤسّسات والهيئات:

توجـد في جنـوب إفريقيـا مؤسّساتٌ وهيئـاتٌ دينية، تخـدم مجالات مختلفة للمسلميـن، وللناس كافّة من حين آخـر، وليـس هناك رابطٌ يربـط مؤسّسـات المسلمين، أو مجلسٌ عـامٌّ تندرج تحته تلـك المؤسّسات، فـكلّ مؤسّسة للمسلميـن، فـي الدعـوة أو التعليـم أو العمـل الخيري في جنـوب إفريقيا، تخدم- بشـكلٍ مباشـرٍ أو غير مباشر- معتقداتها ومنهجها كقاعدة أساسية.

ولنذكر بعض أبرز هـذه المؤسّسات، والمجالات التي تعمل فيها:

الاسم	الاتجاه المذهبي	المجال
SANHA هيئة الحلال الوطنية بجنوب إفريقيا	ديوبندي/ حنفي	مراقبة التزام شركات الإنتاج والمطاعم بضوابط الحلال، وقد أصبحت أكثر نفوذاً من منافسيها، واكتسبت ثقةً العامّة المسلمين.

(١) كلمة «زبير بيات» في دربان.

جمعية العلماء بجنوب إفريقيا	ديوبندي/ حنفي	في أول إنشائها عام ١٩٢٣م كانت في ولاية ترانسفال، أصبحت الآن خوتانج، ومقرّها جوهانسبرج، وليس من المبالغة القول بأنّ هذه الجمعية لها نفوذٌ وهيمنةٌ أكبر من منافيسها.
مجلس المسلمين للقضاء	أشعري صوفي/ شافعي	أُنشئ في كيب تاون عام ١٩٤٥م، لخدمة المسلمين في المنطقة، وليكون صوتاً وممثلاً لهم في المنطقة الغربية.
جمعية العلماء السنّية	بريلوية/ حنفي	أُسّست لخدمة البريلوية، عام ١٩٧٩م، في دربان.
وقف الواقفين	خيري	يُعدّ أكبر مؤسّسة خيرية بجنوب إفريقيا، ولهم نشاطٌ دولي، ويحظى باعتراف كبير من الحكومة. يذكر مؤسّسها «امتياز سليمان»، الذي ترك ممارسة الطب للتفرغ لها، أنه أنشأها بأمر شيخ صوفيّ قابله في إحدى رحلاته في تركيا.

التعليم الديني:

مَـن يدخل جنـوب إفريقيـا يُذهل ممّا يـرى من كثرة المراكـز التعليميـة والمعاهـد الدينيـة الفاخـرة المليئة بالطـلاب الوافديـن من أنحـاء العالم. وكما اتضـح آنفاً: أنّ كلّ الأنشطـة الدينيـة فـي جنـوب إفريقيـا تمشي على الخطوط الطائفيـة المذهبية، وكذلـك المراكز التعليمية الدينيـة، وقـد اشتهـرت مراكـز التعليـم العالـي باسـم «دُور العلـوم»، وهـي بمنزلـة الكليات الشرعيـة في العالم الإسلامي العربـي، وبرنامج التعليم في هذه المراكز ليس معترفـاً به عنـد وزارة التعليم العالي، وهـي تعمل بوصفها مراكز ثقافية دينية.

برامـج التعليم في دُور العلوم تشمـل: تحفيظ القرآن الكريـم واللغـة العربية والدراسـات الشرعيـة، ويستغرق برنامج تعلّم اللغة العربيـة والدراسات الشرعية معاً: ست سنوات في الغالب. إلا أنّ اللغة العربية لا تحظى بالاهتمام اللائـق بهـا؛ بوصفهـا لغـة الديـن الإسلامـي الجامعـة للمسلمين الناطقين بلغـات مختلفة، وذلك لأنّ دُور العلوم هذه قد أعطت اهتماماً عجيباً للغة الأردو من الهند، ويرجع ذلك إلى أنّ أكابـر مذاهبهم من الهند يكتبون بالأردو، بل قـد صرّح بعض مَـن استضيف من الهنـد، «ضيف شرف» في إحـدى حفلات التخرّج، بأنه لا ينبغـي الاهتمام باللغة العربيـة كثيـراً؛ لأنها تُعرِّض شبابهم للأفـكار الوهابية! وزعـم أحدهـم– وهو مدير أحـد هذه الدُّور– بـأنّ العلم الدينـيّ فيمـا دوِّن وصنّف بلغـة الأردو. لذلـك قلّما يوجد خرّيج فيها يتقـن العربية ويعتزّ بها أكثر من اللغة الأردية، بل هناك مَن يزعم بأنّ الأردو والفارسية لغتان إسلاميتان بجانب اللغة العربية.

وبسبب هذا؛ فـإنّ التعليم الدينيّ فـي جنوب إفريقيا يتّصـف بالتعصّـب المذهبي والعنصري إلـى حدٍّ ما، مما يعـود على فَهْم الديـن الإسلامي بالتشـوّه، واتساع أسباب التفـرّق، وإن لم يظهـر لأول وهلة، ولا عجـب في أن يوجد ضعـفٌ شديـدٌ فـي المستـوى الدينـي العِلْمي فـي جنوب إفريقيا.

ومن أشهر هذه المعاهد في جنوب إفريقيا:

الاسم	الاتجاه المذهبي	المكان
دار العلوم نيكاسل	ديوبندية/ حنفية/ شافعية	مدينة نيوكاسل. وهي من أقدم المعاهد الدينية
دار العلوم آزدفيل	ديوبندية/ حنفية	غرب مدينة جوهانسبرج
دار العلوم زكريا	ديوبندية/ حنفية	جنوب مدينة جوهانسبرج
دار العلوم اسبنجو بيش	ديوبندية/ حنفية	مدينة دربان
دار العلوم بريتوريا	بريلوية/ حنفية	غرب مدينة بريتوريا

الإعلام:

أنشـا المسلمـون في جنـوب إفريقيا قنـوات فضائية وإذاعية، تبثّ على مدار الساعة، ومن أبرزها:

الاسم	المكان
قنوات أي تي في (ITV) الفضائية	بالاشتراك
إذاعة سي أي أي (Cii)	مدينة جوهانسبرج
إذاعة إسلام	مدينة جوهانسبرج
إذاعة ٧٨٦	مدينة كيب تاون
إذاعة الأنصار	مدينة دربان

الدعوة الإسلامية:

عند وصول المسلمين الأول إلى جنوب إفريقيا نظر الأهالي الأصليّون إلى الإسلام بوصفه ثقافة قَوْم وافدين لا تهمّهم في شيء، كما كان حالهم مع كلّ دين جديد وافدٍ إليهم، ولذلك فقد انتشر بين الأهالي الأصليّين أنّ الإسلام دين الهنود أو الملايو لزمنٍ طويل، وازداد الأمر تعقّداً وحيرةً لمّا قررت حكومة التمييز العنصري إسكان النّاس حسب عِرْقياتهم فسدَّت باب الاحتكاك، ما أدى إلى استقرار هذه النظرية. ولمّا كثرت الجالية المسلمة المهاجرة من دول إفريقية أخرى إلى جنوب إفريقيا، أخذ هذا التصوّر الخاطئ يتغيّر شيئاً فشيئاً؛ لمّا رأوا بني جلدتهم من القارة قد ترسّخ الإسلام فيهم.

ومما ينبغي الانتباه إليه، أنّ من نَظَرَ إلى تقاليد الأهالي الأصليّين القومية يُفاجأ بوجود تشابهٍ عجيبٍ بينها والتعاليم الإسلامية، الأمر الذي يُثبت وصول الإسلام من قبلُ إلى القوم، وأنّ هذه التقاليد في الحقيقة هي من بقايا الإسلام، ولمّا اطلّع أحد كبار الكفار على هذه الحقيقة؛ أقرَّ بأنّ مَن أراد الرجوع إلى ملّة آبائهم الأقدمين فليُسلِموا.

ومن هذه التقاليد المحليّة المشابهة لتعاليم الإسلام:

- التيامن: في الأكل والشّرب والأخذ والعطاء والمصافحة، ويستقبحون استخدام اليسرى في هذه الأمور، بل ينكرون استخدامها أشدّ الإنكار، ويرون ذلك من سوء الأدب وقلّة الاحترام، وخصوصاً إذا صدرت من صغير إلى كبير، ويسمّون اليد اليسرى «يد القرود»، فلا يليق بالإنسان مشابهة الحيوان.

- تحريم الزنا، فما كانوا يسمحون للزناة بالعيش معهم، لذلك كان عقاب الزنا عندهم: الإعدام للمُحصَن وغير المُحصَن، وينسبون مولود الزنا إلى أمّه لا إلى أبيه، وهم حريصون على حفظ الأنساب.

- النهي عن المشي في نَعْلٍ واحدة: كما هو الحال في الإسلام، لحديث رَسُول اللّه صلى الله عليه وسلم في ذلك: «لَا يَمْشِي أَحَدُكُمْ فِي نَعْلٍ وَاحِدَةٍ، لِيُحْفِهِمَا جَمِيعاً أَوْ لِيُنْعِلْهُمَا جَمِيعاً» رواه البخاري وغيره.

وغير هذه كثيرة جدّاً، ويوجد هذا التشابه عند كلّ قبائل الأفارقة في جنوب إفريقيا، ولا شك في أنّ هذا الوضع أرضٌ خصبة لزرع بذور الدعوة الإسلامية.

ويلاحظ أنّ كثيراً من الجمعيات الدعوية بدأت تتلاشى عن الساحة، ولم تبق إلا مؤسّساتٌ معدودة، مثل المركز العالمي لتبليغ الإسلام (IPCI) لمؤسّسها أحمد ديدات، مع أنّ دعوتها كانت موجهة إلى النصارى، وقد فقدت حيويتها بعد وفاة مؤسّسها– غفر اللّه له.

وقد أُنشئت جمعيات دعوية أخرى خلال الأعوام العشرين الماضية، تستهدف الأهالي الأصليّين في نشاطها الدعوي، ويلاحظ أنّ الطابع الغالب على العمل الدعوي لهذه الجمعيات: الاقتصار على صنفٍ واحدٍ من المدعوين، ألا وهم النصارى، بانغماسهم في مقارنة الأديان، ومن ثَـمّ بقي الكثير منهم في تيهٍ من أمرهم فيما يتعلق بالإسلام، فكلّما تتم دعوتهم إلى محاضرة إسلامية يتم إغراقهم في كمٍّ كبير من أخطاء كتابهم المقدس والتناقضات و... إلا أنهم يخرجون وهم ما زالوا جاهلين بحقيقة الإسلام وما يدعو إليه من التوحيد والمبادئ الكريمة، بل حاقدين عليه بما وُجِهُوا به من فضيحةٍ وخزي، فيتعصبون لباطلهم بغياً بغير علم.

ومن أبرز أسباب اعتناق الإسلام: بساطة الرسالة الإسلامية على العقول وسهولة فهمها، وإعجابهم بما يدعو إليه الإسلام من مكارم الأخلاق، والتشابه الموجود بين التعاليم الإسلامية وبعض ما عندهم من تقاليد، وبعض التجارب الشخصية التي قد يمرّ بها الإنسان في طريقه إلى الهداية.

وفي الآونة الأخيرة؛ سقطت الكثير من الشبهات التي كانت تحول بين النّاس والإسلام، إلا أنه نشأ مكانها شبهاتٌ أخرى، مثل: دعوى أنّ في الإسلام أحكاماً يصعب

تطبيقهـا، والتأثّر بما يُذاع عبـر الإعلام ممّا يشوه صورة الإسلام، والجهـل هو أصل أغلب هـذه الشبهات الحائلة بين النّاس ورجوعهم إلى فطرتهم؛ ما يحتّم على الداعية دراسة الواقع قبل تبليغ الرسالة الإسلامية.

التحدّيات أمام مسلمي جنوب إفريقيا:

من أبرز التحدّيات والمشكلات لدى مسلمي جنوب إفريقيا، ما يأتي:

أ- الغـزو الثقافـي الغربي: تُعدّ دولـة جنوب إفريقيا دولة أوروبية في إفريقيا دون مبالغة، فالطابع الغالب فيها طابع المدنيـة الغربية، التي تفرض الأساليب والوسائل المادّية بصـرف النظر عن شرعيتهـا أو إنسانيتها، هذا الوضع يشـكّل تهديداً ثقافيّاً علـى المسلمين، من تدمير الهويـة الإسلامية ومبادئها، واستبـدال المبادئ الغربية بهـا، وفي الوقت نفسه يعوق العمـل الدعوي تجاه الأهالي الأصليّين؛ إذ يُبعدهم عن تقاليدهم الأصلية القريبة من التعاليـم الإسلامية، فبعد التغريـب يصعب دعوتهم إلى الإسلام.

ب- الخلـط بين المأثور الدينـي والموروث الثقافي: لا بـد من الاعتراف بـأنّ المسلميـن الوافدين إلى جنوب إفريقيـا، قديمـاً وحديثـاً، قـد حملـوا معهـم عاداتهـم وأعرافهـم من بلدانهم الأصلية، فعجزوا عن التمييز بين مـا هو ديني يُطلب الالتزام بها، وما هو عُرفي لا ضررَ في تركه، ولعلّ هذا يرجع إلى ما تمّت الإشارة إليه من ضعف التعليـم الدينـي، وتصدّر غيـر أكفاء فـي توجيه مجتمع المسلمين.

ج- الانتمـاء العِرْقـي، والتعامـل علـى أساس طبقي قَبَلـي: تأثّر المسلمـون بنظام التمييـز العنصري، فغلب الانتمـاء العِرْقي على كثيـرٍ منهم، إلى جانـب ما توارثوه مـن الانتمـاء المتعصّب مـن بلدانهم، فـلا يُستغرب في هذه الأيـام أن يُقال: هذا مَسْجِد الهنـود أو الصوماليّين أو الأوغانديّيـن، والشـيء نفسـه فيمـا يتعلـق بالتزاوج، ويوجـد- مثلاً- في بعض المدن: مسلمـون يصلّون العيد في جماعتَيْن متجاورتَيْـن، بينهما شارع فقط، تصلي كلّ منهما مع أهل عِرْقها.

الخاتمة:

يمكـن تلخيص أهمّ مـا توصّلت إليـه الدراسة فيما يأتي:

- يرجـع تاريخ وصول الإسـلام والمسلمين إلى هذه البلاد إلى أكثر من ثلاثمائة سنة؛ عند التحقيق.

- يتمتـع مسلمو جنوب إفريقيـا بوضعٍ نادرٍ للأقليات المسلمة فـي العالم، حيث تجمّع في حقّهـم كلَّ العناصر التي تضمن- بعـد الله تعالى- البيئة الخصبة لممارسة الإسـلام ونشـره، وهـي: الضمـان السياسـي والإمكانية الاقتصاديـة والبيئـة الاجتماعية، فيجـب استغلال هذه الفرصة لصالحهم.

- يحتـاج مسلمو جنـوب إفريقيا إلى دعـاة وقيادات أكفاء، مؤهلين بالمنهج الصحيح والعقيدة السليمة، وإلى مراكـز تعليـم اللغة العربيـة والتربية الإسلاميـة، ترسّخ الهويـة الإسلامية؛ بعيداً عن التأثيرات القومية والتقاليد الموروثة ■